المديح النبوي في شعر
محمد شيت الجومرد الموصلي* (ت ١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م)

د. عبد الله محمود طه المولى**
قسم اللغة العربية/ كلية الآداب

المستخلص

ان ديوان الجومرد الذي بين أيدينا الآن قد طبع ملحقاً بديوان صديقه وأستاذه ملا حسن البزاز الموصلي في المطبعة العامرية الشرقية بمصر سنة ١٣٠٥هـ، ثم نشره وأعده وقدم له الدكتور فاتح عبد السلام في بغداد سنة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م، والذي بدا لنا من خلال وقوفنا على هذا الديوان أنه لا يمثل إلا النزر اليسير من شعر الجومرد، إذ لم يتسن لنا الوقوف على شعره كاملاً، بدليل ما جاء في مذكرات ابنه عبد الجبار اذ يقول: "ولم يكن شعر والدي المطبوع في هذا الديوان غير قطع بمدح النبي، ووصف بعض مجالسه الخاصة نظمها في مقتبل عمره، ولكني وجدت له قطعاً أخرى من الشعر مخطوطا بيده بعد هذا التاريخ كانت أقوى وأمتن من تلك القطع المطبوعة. مما يدل على انه رحمه الله استمر على نظم الشعر، ولكنه لم يتخذه حرفة ... "، وقد جاء الديوان بواحد وعشرين صفحة تضمن عدداً من المدائح النبوية الزهدية الورعة وبعض الأخوانيات والحكم والأمثال إلى جانب عدد من التشطيرات والتخميسات لبعض الشعراء الموصليين من أمثال حسن البزاز والحاج عبد الله أفندي فيضي .

حياته:

اجمعت موارد سيرة*** الحاج محمد شيت بن عبد الله بن عبد القادر الجومرد على انه ولد في الموصل سنة ١٢٧٧ هـ / ١٨٥٠م على وجه التقريب، ونشأ في بيت علم ودين وتجارة وترعرع محباً للعلم والعلماء، فحفظ القران الكريم، ولم يتجاوز الثامنة عشرة وتتلمذ على يد المبرزين

---

* الجومر = جوان مرد، من الفارسية والكردية، أي: شخص شجاع مقدام شهم ذو مروءة ونخوة وحمية ووفاء. ينظر: حازم البكري: دراسات في الالفاظ العامية الموصلية، ومقارنتها مع الألفاظ العامية في الاقاليم العربية، مط أسعد، بغداد ١٩٧٢/١٥٠، ٤٥٩.

** أستاذ مساعد في كلية الاداب / جامعة الموصل .

*** تنظر موارد سيرته في مذكرات كتبها ابنه عبد الجبار الجومرد لدى الدكتور جزيل الجومرد؛ وينظر: الصائغ: تاريخ الموصل، مط الكاثوليكية، بيروت ١٩٢٨ م، ٢٦٨/٢ ؛ احمد المختار: تاريخ علماء الموصل، مط الجمهورية، الموصل ١٩٦٢، ٤١/٢ ؛ سعيد الديوه جي: تاريخ الموصل، دار الكتب للطباعة، الموصل ٢٠٠١، ٢٣١/٢.

من علماء الموصل آنذاك، حصل منهم على الإجازات العلمية، فدرس القراءات القرانية السبعة، وأتقنها على يد الأستاذ عبد الوهاب أفندي الجوادي، والأستاذ يحيى أفندي للوة، ثم درس الفقه على يد الأستاذ الحاج يحيى بن خضر أغا الساعاتي، ودرس العربية وأدابها على الأستاذ يوسف الرمضاني وغيرهم من أمثال الشاعر ملا حسن البزاز، ومحمد أفندي الشعار، ولما شب واكتمل عوده اشتغل بالتجارة، فذهب إلى (الرها وقيصرية) في تركيا، وإلى (بمبي) في الهند بتجارة الخيل والأغنام والجمال. وكان في شبابه فارساً معدوداً، يشهد له بذلك الموصليون من أبناء جيله الذين كانوا يتفاخرون ويتباهون بالفروسية وأخلاق الفرسان. ويذكر أنه سافر للحج إلى بيت الله الحرام على ظهور الجمال سنة (١٢٩٧هـ)، وعمره آنذاك عشرون سنة، وكانت هذه حجته الأولى التي سلك فيها طريق حلب والاسكندرية، ومنها ركب البحر إلى قناة السويس، فالاراضي الحجازية، ولما عاد إلى الموصل كان الغلاء متفشياً في المدينة، إذ تسمى تلك السنة لدى عامة الناس بـ (سنة الليرة)، فوقف هو وأبوه الذي كان عضواً في بلدية الموصل على الأفران التي فتحتها بلدية الموصل للفقراء حتى انتهت الأزمة وانخفضت الاسعار.

أما حجته الثانية، فقد كان له صديق حميم يدعى سيد يونس بن سيد حسن آل سيد حمو، الذي توفي سنة (١٣٠٤هـ) وحزن عليه حزناً شديداً، فذهب الجومرد مؤدياً فريضة الحج عن صديقه المذكور وفاءً لأخوتهما وتآخيهما، وفي هذه الحجة صحب معه ديوانه وديوان صديقه الشاعر ملا حسن البزاز وطبعهما في مجلد واحد بمصر سنة (١٣٠٥ هـ)، هذا ولم يتسن لنا الوقوف على أخبار سيرته في أطوارها الأخيرة سوى وفاته سنة ١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م.

شعره:

ان ديوان الجومرد الذي بين أيدينا الآن قد طبع ملحقاً بديوان صديقه وأستاذه ملا حسن البزاز الموصلي في المطبعة العامرية الشرقية بمصر سنة ١٣٠٥هـ، ثم نشره وأعده وقدم له الدكتور فاتح عبد السلام في بغداد سنة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م، والذي بدا لنا من خلال وقوفنا على هذا الديوان أنه لا يمثل إلا النزر اليسير من شعر الجومرد، إذ لم يتسن لنا الوقوف على شعره كاملاً، بدليل ما جاء في مذكرات ابنه عبد الجبار اذ يقول: "ولم يكن شعر والدي المطبوع في هذا الديوان غير قطع بمدح النبي، ووصف بعض مجالسه الخاصة نظمها في مقتبل عمره، ولكني وجدت له قطعاً أخرى من الشعر مخطوطا بيده بعد هذا التاريخ كانت أقوى وأمتن من تلك القطع المطبوعة. مما يدل على انه رحمه الله استمر على نظم الشعر، ولكنه لم يتخذه حرفة ... "، وقد جاء الديوان بواحد وعشرين صفحة تضمن عدداً من المدائح النبوية الزهدية الورعة وبعض الأخوانيات والحكم والأمثال إلى جانب عدد من التشطيرات والتخميسات لبعض الشعراء الموصليين من أمثال حسن البزاز والحاج عبد الله أفندي فيضي، ومحمد أفندي الشعار، والحاج عبد الله أفندي نعمان دباغ، والملاحظ على شعر

الجومرد بشكل عام أنه تميز بالعذوبة والخاصية الموسيقية، فضلاً عن الحس والتصوير لأسمى وجدانياته ومعاناته في أدق ما ينطوي عليه قلبه من التعلق بالله ـ تعالى ـ وبرسوله الكريم محمد ﷺ وقد فاضت مشاعره وأحاسيسه بالنقاء والصفاء معبراً بإنشاده ومديحه عن عاطفة وجدانية تجلت فوق ذرى الحب الإنساني لأنه كان يعتقد أن ما يقوله ليس شعراً بقدر كونه وصالاً يسعى إليه، ومرتبة عليا يروم الوصول اليها مما، يدل على زهده وتقواه فامتد شوقه إلى النبي الكريم محمد ﷺ وآل بيته وصحابته، متيمناً بسيرتهم، وبنسبهم الهاشمي، فمدحهم جميعاً بعاطفة صادقة ومعانٍ عذبة بلغة سهلة وأسلوب واضح بسيط مزين بلغة القران الكرم، والشعر العربي القديم فضلاً عن عنايته بالزخرفة اللفظية والمحسنات البديعية التي سادت لدى شعراء تلك الحقبة [١]، تلبية لحاجاته العقلية والشعورية التي تدل على ثقافته الإسلامية، وشخصيته المتدينة فيقول في مقدمة ديوانه [٢]:

"**بسم الله الرحمن الرحيم**

الحمد لله الذي جعل الشعر حكمة ومن البيان سحراً وأشاد لمن علمه إياه في العالمين ثناء وذكراً والصلاة والسلام على أفصح المخلوقات نسبة وأزمعهم في كل كمال قدراً سيدنا محمد الذي سمت محاسنه عن أن يحيط بها حوزة الكلام نظماً ونثراً وعلى آله معادن العرفان وأصحابه فرسان البلاغة وينابيع التبيان وبعد.

فيقول المستمد من فيض إحسان الكبير العلي الفقير إليه تعالى محمد شيت الجومرد الموصلي هذا ديوان قد حاك برده ذهني الفاتر ونظم عقده فكري الداثر وضعته تشبثاً بأهل هذا الشأن وإن لم أكن من فرسان هذا الميدان ولم يختلج في خلدي أن أدنو من هذا الباب أو الج رحابه ولكن إذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه ولا يخفى ان من عرض عقله على ذوي الافهم قد نصب نفسه غرضاً لسهام الكلام وأرجو ممن نظر بمرأة فهمه إليه ان لا يبادر ما ند به القلم أو زل فيه الفكر بالاعتراض عليه فإن الإنسان محل النسيان وقد ندب الشارع لإقالة العثار والتماس الأعذار سيما وأني وشحته بطراز مدائح شريفة نبوية وتوسلات استمطر بها سحب شآبيب المواهب الفيضية الإلهية وساحة الكرم ملجأ كل عارف ومنهل الإحسان لكل وارد رائق صاف ولكل إمرئ مانواه ولا حول ولا قوة إلا بالله ونسأل الله ان ينظمنا في سلك عباده المقبولين وأن يتجاوز عن زلاتنا ويجعلنا لديه من المقربين إنه جواد كريم وبعباده رؤوف رحيم فقلت وبالله التوفيق والهداية لأقوم طريق..."

---

(١) ينظر بشأن شعر تلك الحقبة: لبيب الزيتون: الشعر العراقي في القرن التاسع عشر، مجلة المعارف اللبنانية، ع١/١٩٦٣م؛ علي الزيدي: ادب العراق في العهد العثماني، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع١٩٧٩/٢٦م. ناظم رشيد: الأدب العربي في العصر الوسيط، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل ١٩٩٢م.

(٢) الديوان/١٥٩.١٦٠.

المديح النبوي في شعره:

لقد أولع الشعراء بحب نبيهم الكريم محمد ﷺ فأكثر وتفننوا في مدحه ووصفه، وعبروا بما أوتوا من مواهب وقدرات عن خوالج نفوسهم الهائمة بحبه الشريف، وعن رغبتهم غي السير في ركاب الدعوة المحمدية بمعية صاحبها المكرم الذي بعث هادياً ومبشراً ونذيراً. وكانت شخصيته ﷺ المعين الثر الذي استلهم منه الشعراء صور المثل العليا. فالمديح النبوي [١]، فن من الفنون الشعرية التي لا تصدر إلا عن قلوب مؤمنة صادقة ومحبة متفانية، ولو رجعنا إلى تاريخ هذا الفن الشعري لوجدنا قصيدة الشاعر الأعشى، ميمون بن قيس (ت ٧هـ) أقدم قصيدة مدح بها الرسول الكريم ﷺ ومطلعها[٢]:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا

وقصة الشاعر كعب بن زهير (ت ٢٦هـ) مع الرسول الكريم قصة مشهورة وقصيدته اللامية التي مطلعها[٣]:

بانت سعاد، فقلبي اليوم مبتول متيم إثرها لم يغد مكبولُ

حظيت بشهرة واسعة لما لها من قيمة فنية، كما نالت شرف القائها بين يدي الرسول ﷺ فغدت خالدة عبر العصور، وقد عاصر كعب بن زهير كثير من الشعراء الذين عبروا بصدق عن حبهم وولائهم للرسول الكريم ﷺ ومن أشهرهم الصحابيان الجليلان عبد الله بن رواحة (ت ٨هـ) وحسان بن ثابت (ت ٥٤هـ). وتتابع المداحون له ﷺ في العصور التي تلت قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل بكنوز وفيرة من الاشعار، حتى أطل القرن السابع للهجرة، حيث بلغت قصيدة المديح النبوي ذروتها ونضجها واكتمالها، من حيث عناصرها وتقاليدها[٤]، على يد العديد من الشعراء، ومنهم: الإمام يحيى بن يوسف الصرصري (ت ٦٥٦هـ) والإمام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري (ت

(١) ينظر: زكي مبارك: المدائح النبوية في الادب العربي، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٣٥.

(٢) تنظر القصيدة في: ديوان الاعشى، تحـ: فوزي عطري، بيروت ١٩٨٠/١٠٥.١٠٦.

(٣) تنظر القصيدة في: شرح ديوان كعب بن زهير، دار الفكر، بيروت ١٢/١٩٦٨ وما بعدها.

(٤) ينظر: مخيمر صالح: المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري، دار مكتبة الهلال، ط١، عمان ٤/١٩٨٦ وما بعدها.

٦٩٥هـ) الذي مدح الرسول الكريم بقصائد كثيرة، وأشهرها قصيدته الميمية التي أسماها ((الكواكب الدرية في مدح خير البرية)) والتي اشتهرت بالبردة، ومطلعها [١]:

أمـــن تـــذكر جيـــران بـــذي ســـلمِ مزجـت دمعـاً جـرى مـن فعلـه بـدمِ

وأفاض كثير من الشعراء على تقليدها، والنسج على منوالها، وكان لها الأثر الكبير في شعر هذا العصر الذي سادته حروب طاحنة، أبرزها الحروب الصليبية من الغرب، والزحوف التترية من الشرق[٢]، فظهر عند كثير من الشعراء ميل إلى المديح النبوي، بقصائد طويلة، عدوها من الوسائل التي تنجيهم من المصائب والكروب، وتدفع عنهم أذى الجائرين وسطوتهم كما عدوها وسيلة للتكفير عن الذنوب، وطلباً لرضاء الله ـ تعالى ـ وقد تميزت هذه المدائح بحرارة العاطفة، وصدق الشعور، وبلغ من اهتمام الشعراء بالمدائح النبوية، أن تشعب هذا الفن بعد بردة البوصيري إلى شعبتين: شعبة حافظت على نهج البردة الأدبي، جاعلة من المديح النبوي غايتها وموضوعها، وشعبة أخرى خرجت على نهج البردة والتزمت ألوان البديع على غرار نظم العلوم الأخرى، وسلكت إلى هذا سبيل المديح النبوي، فعرفت تلك المنظومات بالبديعيات [٣]، وهي عبارة عن منظومات طويلة في مدح النبي الكريم ﷺ على بحر البسيط وروي الميم المكسورة، يتضمن كل بيت من أبياتها لوناً من ألوان الفن البديعي ويمكننا القول ان جميع المدائح النبوية التي قيلت بعد البوصيري كانت مسبوقة بالروح البوصيرية شكلاً ومضموناً، ولم يمضِ عصر إلا وللبردة فيه طراز.

ن هذه النظرة السريعة ترينا ان المديح النبوي فن قديم تمتد جذوره إلى عصر الرسول ﷺ ولم يزل الشعراء يقصدون هذا الفن من ذلك الوقت حتى القرن التاسع عشر للميلاد، إذ جعلوا الشعر واسطة يتقربون به إلى نبيهم الكريم راجين شفاعته بعد أن عانوا من قسوة الحياة، واضطراب النفس

(١) تنظر القصيدة في: ديوان البوصيري، تحـ: محمد سيد كيلاني، ط١، مط مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٥٥م/٢١.١.

(٢) ينظر: ناظم رشيد: بحثه: المدائح النبوية في عصر الحروب الصليبية، مجلة آداب الرافدين/جامعة الموصل، ع١٣، ٤٢٧/١٩٨١، والمدائح النبوية في أدب القرن السادس والسابع للهجرة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ٢٠٠٢ م/٧٩ وما بعدها.

(٣) ينظر: علي ابو زيد: البديعات في الادب العربي، ط١، بيروت ٤٦/١٩٨٣ وما بعدها ؛ مناهل فليح، بحثها: المدائح النبوية والبديع، مجلة اداب الرافدين/جامعة الموصل، ع١٣، ٣٤٧/١٩٨١ وما بعدها.

وحيرتها فوجدوا في المديح النبوي متنفساً عن أنينهم [١]، فبرز في هذا المضمار العديد من الشعراء الموصليين، ومنهم شاعرنا محمد شيت الجومرد الذي يمكننا قراءة قصائده النبوية في ضوء حالتين: الأولى تجربته الدينية الخاصة في بيئته الموصلية المحافظة إبان عصر كان للزهد والتصوف ميادين ومجالات ومدارس خاصة. والحالة الثانية: اقتدائه بأسلافه من الشعراء العرب في كتابه المديح النبوي. ومن خلال وقوفنا على المدائح النبوية للجومرد، والتي لا تتجاوز عدد أصابع اليد . إذ لم يتسنَ لنا الوقوف على كل ما كتب في هذا الموضوع . بدا لنا انه قد كتب قصائده هذه حلال زياراته لبيت الله الحرام، ولمدينة رسول الله ﷺ فقد استهل إحدى قصائده بذكر الديار الحجازية، والتشوق والحنين إلى وادي حرادا، ونسيمه الشافي لاسقام المحب، فقد سنحت الفرصة للجومرد أن يكون قريباً من تلك الديار التي عبر عن حبه لها بعواطف وأحاسيس صادقة، لما لهذه الأماكن من علاقة بحياة الرسول الكريم ﷺ ومنها بزغ فجر الاسلام فاكتسبت تلك الديار لذلك قيماً انسانية لدى شاعرنا الجومرد، فأعلن عن حبه لها ولمن سكنها بصدق العاطفة وحرارة المشاعر سائلاً عيس أحبابه وحاديها ان يطيل المكوث في تلك المرابع بمواسمها الربيعية الزاهرة في حمى رسول الله الذي تكشفت كل الكروب والمصاعب ببركاته وشفاعته، فيقول[٢]:

سـرينا باسـم خـلاق البرايـا ... علـى ضـمر السـوابح فـي النقـوع
وسـارت عـيس احبـاب لقلبـي ... وحاديهـا باحشـاء الضـلوع
ولمـا حثهـا جـادت بليـل ... ومـاء المـزن يحكـى عـن دمـوعي
أناديـه أيـا هـادي الحيـارى ... انيخاهـا علـى طلـل الصـريع
أناخوهـا علـى وادي حـرادا ... ونسـتمه شـفاء للوجيـع
ومنـه تنبـت الأزهـار جمـا ... وفيـه مرتـع الرشـا المطيـع
سـقاه الله مـن مـاء دهـاق ... حمـاه الله فـي حـرز منيـع
ربيـع العمـر فـي مرعـى حمـاه ... ربيـع فـي ربيـع فـي ربيـع
وعنـا تكشـف الحوبـاء فيـه ... مسـامحة مـن الـرب السـميع
شـربنا مـن زلال المـاء عـذبا ... غـذيا مـن ضـنى الضـان الرضـيع

(١) ينظر: يوسف عز الدين: الشعراء العراقي اهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر الميلادي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٥م/٨٤.٨٥.

(٢) ينظر: الديوان/١٦٥.

ثم يلتفت إلى نفسه، وقومه من أبناء الموصل الحدباء انعكاساً لقسوة الحياة، وضعف القيم العربية الإسلامية بين الناس، معبر عما يختلج في كيانه من زهو، واعتداد بالنفس، وما تنطوي عليه من قيم عربية إسلامية أصيلة وجليلة سامية، نالوا من أجلها سعادة الدارين، على عكس حسادهم وأعدائهم من الأقوام الاخرى الذين أنطوت سريرتهم على الباطل والخبث الذي كدر معاشهم في الدنيا، وأذلهم يوم لقاء الله ـ تعالى ـ فيقول[١]:

وللحساد من خمط واثل وسدر أو بأكل من ضريع
فلا يهنا ولا يمرى غذاء ولا يسمن ولا يغنى لجوع
وانا من بني الحدباء جدا إذا زكت الجدود بلا ولوع
وقول الزور لم نركن إليه ولا نصغى إلى قول الشنيع

فالجومرد، وبفضل ثقافته الدينية استطاع أن يتمثل نصوص القران الكريم، امتثالاً ينسجم وتجربته الشعورية، فجاءت نصوصه حية نابضة، تستمد قوتها التعبيرية من قوة الآيات القرانية لتقوية الأثر الفني لدى المتلقي، فقد نظر في هذه الأبيات إلى سورتي سبأ والغاشية القرآنيتين، واقتبس منهما صوراً رائعة في توصيفه لأعدائه، من قوله ـ تعالى: (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ)[٢]، وقوله ـ تعالى: (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۞ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)[٣]، معبراً عما يدور في فكره وما يجول في خاطره، غائصاً في أعماق القران الكريم ليستخرج لنا درراً يزين بها شعره، وينمقه، لأن التزيين والتنميق في تلك الفترة كان هوى الشعراء العرب المتخمة نصوصهم بأسباب الزخرفة اللفظية والمعنوية، فأكثر الجومرد من هذه الألون تلبية لحاجات شعورية وعقلية تدل على ثقافته الإسلامية العربية، وتماشياً مع الذوق الفني الشعري لأدباء ذلك العصر.

وفي قصيدة أخرى، يبدو أنه قد كتبها، وهو في رحاب بيت الله الحرام، نراه في وقفته على جبل عرفات، مؤدياً مناسك الحج، متوجهاً إلى الباري عز وجل، متذللا زاهداً، داعياً غفران الذنوب وإقالة العثرات متشفعاً بالنبي الكريم ﷺ وآل بيته الاطهار، وصحابته الأبرار، ملجأ التائبين، وملاذ النادمين، والسرج المنيرة في هداية الناس إلى الطريق القويم، فيقول[٤]:

على الله في كل الأمور توكلي وبالمصطفى الهادي البشير تبتلي

(١) ينظر: الديوان/١٦٥.
(٢) الاية ١٦، سورة سبأ.
(٣) الايتان ٦.٧، سورة الغاشية.
(٤) ينظر: الديوان/١٦٠.

وأصـــحابه الأخيـــار أولهـــم هـــدى ... يكنـــى بصـــديق النبـــي المفضـــل
أبـــو حفـــص الفـــاروق للحـــق معلنـــا ... وعثمـــان ذو النـــورين والمرتضـــى علـــي
وفاطمـــة الزهـــرا وأولادهـــا الأولـــى ... أعـــد لهـــم فـــي جنـــة خيـــر منـــزل
وبـــالال جمعـــا والصـــحابة جملـــة ... نجـــوى الهـــدى أهـــل الـــولا والتكمـــل
اقلنـــي إلهـــي عثرتـــي بتلطـــف ... وعطـــف وجـــد وارحـــم بـــذاك تـــذللي
أتيـــت لغفـــران الـــذنوب مـــؤملاً ... فمنـــك الرجـــا أن لا يخيـــب تـــأملي
انخنـــا مطايانـــا علـــى الخيـــف برهـــة ... بتلبيـــة كنـــا وحـــال تبلبـــل
وفـــي عرفـــات قـــد أزاح ذنوبنـــا ... وعمـــت هبـــات الله كـــل مؤمـــل

فالجومرد في أبياته هذه بدا لنا زاهداً متصوفاً صادقاً ومخلصاً في التعبير عن شعوره وإيمانه وتوكله على الله، وحبه لرسوله الكريم وآل بيته وأصحابه، بيد أنه لم يستطع الوصول إلى ما وصل إليه الشعراء المداحين القدامى في عمق الفكرة، وجودة السبك وروعة التأليف، والإغراق في أجواء الخيال، ذلك ان عصر الجومرد لم يساعده على التطور الفكري الذي كان متاحاً للشعراء المداحين في العصور السابقة، كما ان بيئة شاعرنا الجومرد كانت أقوى من خياله، وأشد بأساً على تفكيره، ولهذا جاء شعره في تعبيره عن الذات الإلهية المقدسة، من خلال النافذة الجانبية البسيطة، والمتمثلة بمدح المقربين من الله ـ تعالى ـ بأسلوب بسيط وواضح، ولغة قريبة من لغة الحياة الدارجة، يصور فيها ورعه وتقواه، واستنجاده برحمة الله ومغفرته، ولكي ينفس عن حيرته وقلقه يسعى إلى توثيق العلاقة بينه وبين الله ـ تعالى ـ فيطالعنا بخطرات شعرية، تمثل مناجاته الذاتية البسيطة التي يتلمس فيها الخلاص من واقعه القاسي، ولهذا سريعاً ما تتوق روحه إلى رحاب مدينة الرسول ﷺ فيتحرق شوقاً إلى تلك الديار المقدسة، وراح يذكر كل ما يمكن أن يثير فيه اللوعى والأسى نحوها، فيناشد حادي العيس أن ينثني نحو مرابع طيبة، ووادي العقيق لكي يحظى برؤية سيد الثقلين ﷺ فيقول [1]:

أيـــا حـــادي العـــيش أنثنـــي نحـــو أرضـــهم ... وهيـــئ وثاقـــا قـــد تفلـــش محملـــي
وعـــرج علـــى وادي العقيـــق ونحـــوه ... وحقـــق بـــه الاطـــلال يـــا صـــاح وأنـــزل
شـــددنا رحـــالا للنبـــي وصـــحبه ... وقلـــت لروحـــي بالوصـــال تعللـــي
أيـــا ســـائقا غنـــي النيـــاق وجـــد بهـــا ... فمـــن أجلهـــم كـــان اشـــتياق تعجلـــي
فيـــا ليتنـــي أحظـــى برؤيـــة نـــورهم ... وتظهـــر آيـــات الوصـــال وتنجلـــي
فهيـــا أيـــا مشـــتاق واقصـــد لطيبـــة ... ومـــن ذلـــك النـــور المبـــين تجمـــل

(١) ينظر: الديوان/١٦٠.

ومـــن يســـأل الركبـــان عنـــا فإننـــا قطعنـــا فيـــافي البيـــد مـــن كـــل منهـــل
وجبنـــا ذرى كـــل الحـــزون بســـيرنا كجنـــات عـــدن قـــد زهـــت بتشـــكل

ثم يتحول شاعرنا الجومرد إلى وصف حالته النفسية بعد أن اناخ الركب في رحاب حبيبه رسول الله ﷺ وما تمتعت به نفسه من سعادة غامرة، دعته إلى تقبيل التراب الذي تشرف بأن وطئته أقدام المصطفى ﷺ فيقول [١]:

ولمـــا انـــاخ الركـــب فـــي ذلـــك الحمـــى شـــممنا بـــذي الأطـــلال ريـــا القرنفـــل
وشـــمنا بهـــا برقـــا تـــلألأ نـــوره فانبـــأ مـــن هـــذا الحبيـــب تكملـــي
أيـــا نفـــس قـــد نلـــت المنـــى بوصـــاله ومـــن نصـــب لا تجزعـــي وتحملـــي
لقـــد حـــان تقبيـــل التـــراب الـــذي بـــه تشـــرف مـــن أقـــدام هـــذا المجبـــل

ففـــي طيبـــه طـــاب ابتهـــاج نفوســـنا بحضـــرة انـــس أمهـــا كـــل أمـــل
أصـــلي بهـــا فرضـــاً جلـــيلاً وســـنة وفـــي زمـــن الأســـحار كـــان تنفلـــي
فتوجنـــا تـــاج الســـعادة معلنـــا وألبســـنا ثـــوب الهنـــا بتجمـــل

وتبقى شفاعته ﷺ الهاجس الذي يلح على شاعرنا الجومرد ويفك عقدة لسانه لتلهج بالثناء تارة، والتوسل والرجاء تارةً أخرى، جاء ذلك بلغة بسيطة، وعاطفةً صادقة مملوءة باللوعة والأسى والشعور بالذنب، انعكاساً لشعوره بالضيق النفسي الذي أفرزه ظلم الحياة وقسوة المجتمع، ولهذا بدا شاعرنا الجومرد متأرجحاً بين حالة الخوف حيناً، والتمرد على الواقع المرير بكل ما فيه من جور واضطراب حيناً أخرى، انطلاقاً من منهجه الديني الإسلامي وانعكاساً لما يجيش به صدره من أحاسيس ورغبات مكبوتة، فسعى إلى التوسل والشفاعة بحثاً عن خيوط الأمل والاطمئنان، وهروباً من واقعه القلق، والشعور بالقصور عن تأدية حق الرب سبحانه وتعالى فيقول [٢]:

أيـــا ســـاكن البطحـــاء جئتـــك راجيـــاً أروم لـــدفع الضـــر يـــا خيـــر مرســـل
فانـــت أمـــان الخـــائفين إذا همـــو ينـــادون مـــا الأخبـــار يـــوم تزلـــزل
أيـــا ســـيد الكـــونين جـــد لـــي بنظـــرة تـــنفس عـــن قلبـــي المكـــروب وتنجلـــي

(١) ينظر: الديوان/١٦١.
(٢) ينظر: الديوان/١١٠.

أنـــال بهـــا عـــزاً ومجـــداً وســـؤدداً ويرقـــى عـــى أوج الســـعود تســـفلي

ويقول في قصيدة أخرى متشفعاً بالرسول الكريم ﷺ أو آل بيته الأطهار وصحابته الأبرار معلناً ذوبانه وتلاشيه في حبهم [1]:

يـــا أبـــا القاســـم أنقـــذني لقـــد ســـاءني مـــن حـــادث بـــل واعتـــدى
يـــا أبـــا الزهـــراء إنـــي مـــذنب وذنـــوبي قـــد علتنـــي زبـــدا
يـــا شـــفيع الخلـــق جـــد لـــي نظـــرة إن أعمـــالي لقـــد أمســـت ســـدى
أنـــت عـــوني أنـــت ذخـــرى عمـــدتي واعتمـــادي بـــل غيـــاثي ســـرمدا
أنـــت يـــا غـــوث المـــلا كنـــز العطـــا منـــك يـــا خيـــر الـــورى أرجـــو النـــدى
فأقـــل بـــاللطف عنـــي عثرتـــي يـــا رســـولا جـــاء بـــالحق هـــدى
صـــلِّ يـــا ربـــي عليـــه دائمـــا كلمـــا طيـــر بكـــى أو غـــردا
آل طـــه أنتمـــو مـــع صـــحبه بكـــم الـــدين لنـــا قـــد شـــيدا
أنجـــزوا بالوعـــد ان خطـــب عـــرا فوفـــاء العهـــد عـــنكم وردا
ذاب قلبـــي باشـــتياقي لكـــم فوجـــودي شـــبحا لا جســـدا
بـــأبي بكـــر أبـــان الـــدين فـــي صـــدقه للمصـــطفى قـــد أيـــدا
والفتـــى الفـــاروق جـــدا فـــرق الـــزور والحـــق بـــه تأكـــدا
وبـــذي النـــورين عثمـــان الـــذي جهـــز الأجنـــاد قهـــرا للعـــدا
وعلـــي البطـــل الشـــهم الـــذي لجميـــع الكفـــر ســـيفا جـــردا

ان تكرار أفعال الاستغاثات والاستجارات والاستعانات والنداءات، واضح وجلي في هذه الأبيات، وقد مثلت هذه التكرارات صيحات صادقة مفعمة بعاطفة الشكوى والخوف من هوى النفس وتراكم الذنوب، وشدة العناء والأزمات النفسية القاسية نتيجة لقسوة الحياة، وصدى الصراع الدائر في رأس الشاعر بين المثل الإسلامية العليا، ومظاهر السياسة الظالمة التي انتهجها الحكام واتباعهم. فأصبحت مآثر الرسول الكريم ﷺ وأخلاقه الحميدة ملهماً إلى التغني بها، ودافعاً إلى نظم القصائد الشاكية المفعمة بالاستغاثة والتشفع والضراعة الطافحة بحرارة العاطفة والإيمان الصادق، وصفاء الشعور لقصد التنفيس عن الآلام والأحزان، والتشفع في العفو عن الذنوب يوم الحساب جاء ذلك في أطر تقليدية من حيث الأسلوب واللغة والألفاظ دون أن يسمو إلى عمق الخيال ومتانة التراكيب، فالشاعر، وإن

(١) ينظر: الديوان/١٦٢.١٦٣.

كان صادقاً في عاطفته، بيدّ أن ثقافته البسيطة جعلت شعره تغلب عليه سجية التقليد، وتبدو عليه روح الحزن والحيرة، ومحاولة الهروب عن مشكلات العصر، ذلك ان الشاعر لم يكن يفكر في إنشاد شعره هذا في المحافل الثقافية ولا في مجالس العلماء الخاصة، ولا في بلاطات الخلفاء والحكام، فقد أضاع شعراء هذه العصور طريقهم إلى الحكام، كما أضاع الحكام طريقهم إلى الشعراء، لأختلاف اللغة بين الحكام والمحكومين(١)، بل ينظم هذا الشعر لينشد في حلقات الذكر العامة، وحفلات الموالد النبوية الشريفة التي تقيمها العوائل الموصلية يومذاك ففي إحدى قصائد الجومرد التي يبدو أنه كتبها في رحاب المسجد النبوي الشريف، يقول (٢):

طابت النفس منذ نالت مناها ... واستجارت بسيد الرسل طه
شاهدت من سناه نوراً مبينا ... ساطعا حول طيبه ورباها
واحتمت برهة بظل حماه ... فاجتباها بلطفه وحماها
فاستغاثت بوجودها من ذنوب ... كابدتها بمنة فمحاها
وعلى القبر قد وقفت بذل ... وانكسار وحسرة أتباهى
وغدا الجسم ناحلا بانحناء ... ويدين تقطمت برداها
صرت ادعو واعيني بدموع ... خدّت الخد قرحت جفناها
ثم قرت من نوره واستقرت ... وغدت كحلة ترى بجلاها
رافعا باسطاً أكف افتقاري ... فرجائي أن لا يخيب رجاها
وأنادي يا سيدي بخضوع ... تشتكي النفس جرمها وجناها
أنت ذخري وملجئي من جحيم ... يوم حشر إذا الكريم حماها
أنت طه وطيبة بك طابت ... أنت خير ممن بها ووطاها
أنت في الكون مفرد يا فريد ... أنت للخلق رحمة وهداها
أنت خير ممن بذا الكون طرا ... أنت للروح ذخرها ومناها
أنت للخلق سيد وبشير ... أنت للخلق منية ورجاها
ظمئي الجيش في الفلا يوم حرب ... فرواهم من أصبعيه مياها
بأبى بكر الذي حاز فضلا ... ووقارا ورفعة ووجاها
أنفق المال جمة برضاه ... خلل الجسم بالعبا وارتضاها

(١) ينظر: بكري شيخ امين: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ط٣، بيروت: ٩٨٠/.
(٢) ينظر: الديوان/١٦٣.١٦٤.

وأبـــي حفـــص الهمـــام بحـــرب ســـل للكفـــر مرهفـــا والتقاهـــا
بجنـــان لـــو يلتقـــي مـــعْ جبالـــ الصـــم ضـــربا بـــأبتر لبراهـــا
مـــلا الخـــافقين بـــالحكم قســـطاً وعلـــى الحـــق للأمـــور دعاهـــا
وبعثمـــان ســـيد ذو حيـــاء لجيـــوش بيـــوم عســـر كفاهـــا
جمـــع المصـــحف الشـــريف بجهـــد مـــع اتقـــان ايـــة لـــو تلاهـــا
بعلـــي أبـــا الفـــوارس يـــدعى ولأبـــواب خبيـــر قـــد دحاهـــا
كلمـــا ســـل مرهفـــا يـــوم شـــن فـــرت الكفـــر تقتفـــي بقفاهـــا
نـــور القلـــب باتجـــاه ضـــريح واكتســـى الجســـم منـــه عـــزا وجاهـــا
وانســـنا بروضـــة مـــن ريـــاض الجـــ نـــة الخلـــد يـــا فتـــى لـــو تراهـــا
وثملنـــا بســـكرة كـــان فيهـــا لـــم نجـــد صـــحوة ولا منتهاهـــا
ظعـــن الركـــب بغتـــة بغبـــوق عـــن ضـــريح بـــه المهـــيمن بـــاهى
بكـــت الـــروح فرقـــة ثـــم قالـــت أحســـن الله للنفـــوس عزاهـــا
وغـــدا الركـــب عنـــد طيبـــة جـــاث يســـتمد الفـــلاح حتـــى بكاهـــا
طبـــت يـــا طيبـــة بضـــم ضـــريح ذي فخـــار بـــه الإلـــه تبـــاهى

اما معجزاته ﷺ فقد مثلت عنصراً بارزاً في شعر الجومرد والمعجزة ـ كما هو معروف ـ أمر خارق لنواميس الكون، خارج عن سنن الوجود التي عرفها الناس، وسميت معجزة لعجز البشر من الاتيان بمثلها، تظهر على يد مدعي الرسالة، تصديقاً لدعوته، واقناعاً للمرتدين من رسالتة، وتكون مقرونة بالتحدي [1]، وقد سعى الجومرد للحصول على كل ما يزيد من قدر الرسول الكريم ومنزلته في عصر كثرت العصبيات الدينية، وقد تنوعت معجزات الرسول الكريم في شعره، حتى شملت مظاهر الكون من إنسان وحيوان ونبات وجماد، ويعد القران الكريم أول هذه المعجزات وأعظمها، إضافة إلى معجزات أخرى، كإنشقاق القمر إلى نصفين، ونطق البهائم وتفجير الحصا عيوناً بين أصابعه الشريفة، وتسبيحها في يده الطاهرة، وبكاء الجذع، وأنينه وحنينه إليه، والسحابة التي رافقته لتقيه حر الرمضاء، وإبراء ذوي العاهات، وتكلم ذراع الشاة المسمومة وانطفاء نار فارس بولادته، وتصدع ايوان كسرى وسقوط شرفاته، وإسراؤه ﷺ ومعراجه ودنوه من الذات العليا إلى غير ذلك من المعجزات التي

(١) محمد جاد المولى، محمد المثال الكامل، مط صبيح، ط٥، ١٩٦٦/١٢٨.

ذكرتها المصادر الدينية والتأريخية [١]، فأوردها الجومرد في شعره للتدليل على المنزلة العظيمة التي نالها ﷺ من ربه سبحانه وتعالى وكلها تندرج تحت الرعاية التي كانت تتولاه ﷺ، وهذا ما أكده الجومرد في شعره، فيقول [٢]:

طـــاب مثوانـــا ولا نخشـــى الـــردى ... إن خيـــر الرســـل فينـــا أحمـــدا
مـــن يـــروم النعـــت مـــن أوصـــافه ... لـــم يجـــد مـــن منتهـــى أو مبتـــدأ
نطقـــت فـــي حلمـــه بهـــم الفـــلا ... بفصـــيح القـــول مـــن رب الهـــدى
بمنـــام أمـــة قـــد بشـــرت ... إن حمـــلاً منـــك يبـــدو ســـيدا
وبمـــيلاد نـــرى يـــا صـــاح قـــد ... خـــرت الأصـــنام رغمـــا لبـــدا
وغـــدا إيـــوان كســـرى هيبـــة ... لجـــلال المصـــطفى مرتعـــدا
أخبـــر الكهـــان فـــي تعبيـــرهم ... خيـــر مولـــود بنـــا قـــد ولـــدا
شـــب فـــي اليـــوم كشـــهر غيـــره ... وبخمـــس قـــد مشـــى معتمـــدا
وقـــواه قويـــت فـــي تســـعة ... وبحســـن العـــزم قـــد تفـــردا
ولقـــد شـــق لـــه عـــن صـــدره ... حـــظ شـــيطان بغســـل نفـــدا
ومعـــاني حكمـــة مـــن أبحـــر ... رضـــعت موضـــعه طـــول المـــدى
مـــا رآه شـــجر او حجـــر ... مقـــبلا إيـــاه إلا ســـجدا
وبليـــل قـــد رقـــى أســـنى العـــلا ... وبـــه فـــي عـــوده قـــد رقـــدا
شـــرف العـــرش بنعليـــه كمـــا ... شـــرفت أرض بهـــا قـــد عبـــدا
فبعينيـــه رأى الله وقـــد ... نطـــق الـــراوون قـــولا ســـندا
ومقـــالات رووهـــا جمـــة ... فبهـــذا قـــد تحـــروا رشـــدا
وأميطـــت حجـــب عـــن وجهـــه ... ويعـــود فـــي هبـــوط صـــعدا
فبطـــه طيبـــة طابـــت بـــه ... مـــذ أتاهـــا صـــابرا مجتهـــدا
كـــل مـــن ام حمـــاه راجيـــا ... فبنيـــل القصـــد حقـــا ســـعدا
ولنـــا إن ســـعرت نـــار لظمـــى ... لـــم نجـــد مـــن دونـــه ملتحـــدا
وعلـــى الحـــوض غـــدا موردنـــا ... مـــاء عـــذب بـــل وأحلـــى مـــوردا

---

(١) ينظر: عبد الرحمن بن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى، تحـ: مصطفى عبد الواحد، مط السعادة، ط١، مصر ١٩٦٦، ١/١/٢٧٢، ٣٣٥.٣٣٧، ٣٢٤، ٣٣٣، ٤٢.

(٢) ينظر: الديوان/١٦١.١٦٢.

فـــاز ســـلمان الـــذي مـــن فـــارس بصـــلاح الـــدين جهـــرا مـــذ بـــدا
وابـــو جهـــل بـــبغض بـــائر وبنـــار مـــن لظـــى قـــد وقـــدا
وكـــذا مـــن مثلـــه نـــال العنـــا ولقـــى مـــا قـــد لقـــى يـــوم النـــدا
مـــا عـــلاه واحـــد فـــي مشـــيه قـــط إلا طالـــه وبـــه اقتـــدى
شـــاب فـــودي بمـــديح الهاشـــمي وفـــؤادي بإشـــتياق شـــردا
وجنـــاني والـــه فـــي وصـــفه ولســـاني بالثنـــاء انعقـــدا
ويراعـــي كَلـــلٌ وصـــفاً وعلـــى عجـــزه مـــن عجـــزه قـــد قعـــدا

فقد اتصلت الصفات المادية والمعنوية في هذا النص بموصوف مثالي هو الرسول الكريم ﷺ الذي عرف عنه ما عرف من الصفات التي فاق بها جميع الخلق قاطبة، وراح الشاعر ـ بعد أن أضناه ذل الحاضر ـ يدعو إلى اكتساب المفاخر من جامعها الذي رعته العناية الإلهية رضيعاً وشاباً وشيخاً حتى وفاته ﷺ، فالجومرد في ذكره لمعجزات الرسول الكريم، وتأكيده على قضية الشفاعة للأمة الإسلامية يوم الحساب. إنما يريد أن يشكل من ذلك كله عنصراً مدحياً ذا دلالة موضوعية واضحة، القصد منه خلق أجواء الأمل، ومد خيوط التفاؤل في مجتمع أضناه القهر والظلم والفقر والتخلف.

كما حوت نبويات الجومرد عبارات الدعاء للنبي الكريم ﷺ والصلاة عليه، تيمناً بقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً)[١]، وقوله ﷺ: " من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرة "، وقوله: " البخيل من ذكرت عنده ولم يصل عليَّ "، وغالباً ما تجيء الصلاة على الرسول مقرونة بالتسليم عليه لقوله ﷺ: " ما من احد يسلم عليَّ إلا ورد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام "، ولهذا فقد ادرك الجومرد هذه الجائزة فاكثر من الصلاة والتسليم على النبي ﷺ راجياً من الله ان يصلي ويسلم على رسوله الكريم وآله الاطهار، فقد ختم احدى قصائده بقوله [٢]:

ونختمهـــا بخيـــر الرســـل طـــه شـــفيع الخلـــق أنعـــم مـــن شـــفيع

وختم قصيدة اخرى بقوله [٣]:

(١) الاية ٥٦: سورة الاحزاب.
(٢) ينظر الديوان/١٦٥.
(٣) ينظر الديوان/١٦١.

عليك سلام الله ما اظلم الدجى وما أضاء بدر السما يتكحل

وفي قصيدة اخرى بقوله [١]:

صل يارب عليه دائماً كلما طير بكى أو غردا

آل طه انتم مع صحبه بكم الدين لنا قد شيدا

إنني شرفت في مدحي لهم فأرض عنهم يا إلهي أبدا

وختم قصيدة اخرى بقوله [٢]:

وصلاة تحفه مع سلام هي تجلى عن القلوب صداها

وبهذا فان المدائح النبوية في شعر الجومرد تتراوح من حيث المعنى والمضمون التأكيد على صفات النبي ﷺ وأخلاقه وسجاياه، وما تحلى به من جود الخصال وكرم الطباع ولطف الشمائل المعنوية والمادية، وبين التأكيد على معجزاته ﷺ التي كشفت عن نبوته وصدق رسالته، إلى جانب التأكيد على أخباره وسيرته وسير آل نبيه الأطهار وأصحابه الأخيار، وقد غلب على كل هذه الأمور توسل الشاعر ورجاء شفاعة هؤلاء يوم البعث والحساب، ولهذا فقد أكثر الصلاة والتسليم عليه ﷺ، وقد اشتركت كل هذه المدائح في كونها تمتاز بالبساطة والوضوح في أساليبها، ومعانيها تكاد تكون لا إبداع فيها ولا تجديد، فضلاً فإن ألفاظها يسودها الضعف في السبك، ويغلب عليها عنصر التكرار، حين تعوزه الطاقة الشعرية بقوة الأسلوب وعمق الخيال، على الرغم مما تحمل من عاطفة صادقة وحرارة الشعور.

(١) ينظر الديوان/١٦٣.

(٢) ينظر الديوان/١٦٤.

Prophetic praise in poetry
(Muhammad Shit al-Jumard al-Mawsili (d. 1343 AH / 1925 CE

Dr.. Abdullah Mahmoud Taha al-Mawla

Abstract

Al-Jumard office that is now in our hands has been printed attached to the book of his friend and professor Mulla Hassan Al-Bazzaz Al-Mawsali in the Eastern Al-Amiriya Printing Press in Egypt in 1305 AH. It represents only a small fraction of Al-Jumard's poetry, as it was not possible for us to stand on his hair completely, as evidenced in the memoirs of his son Abd al-Jabbar, when he says: He is very early, but I found him other pieces of hair handwritten after this date that were stronger and more durable than those printed pieces. This indicates that God's mercy continued on the poetry systems, but he did not take it as a craft ... ", and the poem came with twenty-one pages that included a number of the praises of the pious ascetic prophet and some of the siblings, wisdom and proverbs, as well as a number of divisions and intrusions for some of the Mosulian poets such as Hassan Al-Bazzaz and Al-Hajj Abdullah Effendi Faidi.